السلوك الصوفي بين السلمية والاستسلام

د. دريس بن مصطفى
جامعة سعيدة

Abstract:

Noon mysticism as a result of deviation behavior among some Muslims who have distanced themselves from what Islam promotes moderation and centrism and move away from the negligence and excessive behaviors and life balance between spirit and matter, which has necessitated the emergence of a stream opposite tendency of a spiritual nature, calls for asceticism and asked Naim afterlife was mysticism which found a lot of the Islamic commitment to moderate behavior.

Keywords:

mysticism - Islam promotes - the Islamic commitment - negligence.

ظهر التصوف كنتيجة لانحراف سلوكي لدى بعض المسلمين الذين ابتعدوا عما يدعو إليه الإسلام من اعتدال ووسطية وابتعاد عن التفريط والإفراط في السلوكات الحياتية والموازنة بين الروح والمادة، وابتدعوا فتسابقوا على عرض الدنيا و بهارجها وملذاتها، الأمر الذي استدعى ظهور تيار ونزعة معاكسة ذات طابع روحي، تدعو إلى الزهد وطلب نعيم الآخرة فكان التصوف الذي وجد فيه الكثير ضالتهم للالتزام بالسلوك الإسلامي المعتدل.

نحن هنا لا نتحدث عن من تصوفوا نتيجة لحالة أفول أصابت الفكر الإسلامي -كما هو الحال في الوقت الحاضر فغرقوا في التصوف

وفي المبهم وفي المشوش، وفي النزعة إلى التقليد الأعمى كما أشار إلى ذلك -مالك بن نبي([1])، وإنما عن أولئك الذين اكتفوا بحسن الخلق والزهد في الدنيا والتأدب بآداب الشّرع، فلقّبوا بالنساك والقراء والزهاد والعباد، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتها، وحرصوا على الصيغة المذهبية فلقّبوا بالصوفية، أو بمعني السلوك الإسلامي وترقيق القلوب والزهد في الدنيا لا تلك التي ابتدعت فابتعدت عن خط أهل السنة والجماعة، لأن التصوف أسمى من ذلك، فهو أكبر تيار روحي يسرى في الأديان جميعها، وبمعنى أشمل يمكن تعريفه بأنه إدراك الحقيقة المطلقة سواء سميت هذه الحقيقة حكمة أو نورا أو عشقا([2])،لأن التصوف كفكرة ظهر بظهور الإنسان من خلال محاولاته الأولى للتطلع إلى معرفة الغيب واستشراف عالم ما وراء الطبيعة([3]).

إن الدارس لتاريخ التصوف يدرك بأن الطرق الصوفية قامت بدور هام وفعال في إرساء دعائم وأسس السلم في المجتمعات الإسلامية والعربية لدرجة أنها وصفت من طرف البعض بصفات عديدة تخرجها من إطار ونطاق السلم إلى الاستسلام والخضوع والخنوع وغير ذلك من الصفات التي حاول البعض إلصاقها بها.

فإلى أي مدى استطاعت الطرق الصوفية إشاعة السلم بين مريديها وأتباعها أولا، وفي المجتمعات المحيطة بها ثانيا ؟ وهل كان سلوك المتصوفة سلبيا مسالما في كل الحالات، أم كان عنيفا في الحالات التي يتطلب فيها الأمر ذلك؟ وهل كان سلوك المتصوفة المتمثل في العزلة والنأي عن التطاحن الحزبي والديني تغطية لعجزهم في مواجهة تحديات الحياة والقيام بالمسؤولية التي خص الله بها الإنسان المسلم خاصة في هذه الأرض وهي

إقرار المصالحة بين الأخوين المتخاصمين أو محاربة الباغي إذا رفض المصالحة؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال مقالنا.

نزل القران الكريم على المصطفى صلعم الذي تأدب بأدب القرآن فاجتباه الله ليبلغ رسالة السماء، ليصلح بها الإنسان كي يصلح به الكون، ومن هنا يشمل الدين الإسلامي –والأديان السماوية الأخرى – ضمن مفاهيمها تكريم هذا الإنسان والحرص على استقامة السلوك البشري وتهذيب معاملاته مع ربه من ناحية، ومع بني جنسه من ناحية أخرى ليقوم بنيان الأمة الإسلامية على أساس متين ولبنات صلبة متماسكة([4]).

إذن هناك أناس ينتسبون إلى التصوف، وأخذوا بجانب الصوفية لظنهم أنها الطريق الوحيد لتربية النفس، فهم لا يتعمقون في التصوف المنحرف المؤدي إلى الضلالة أو الكفر([5])، فلم يكونوا من أولئك الكسالى المتواكلين، والمتشائمين البعيدين عن أوامر الله ومنفعة المجتمع الذين أنتجهم التصوف الخاطئ، أو أولئك الذين اعترفوا بالعجز والتسليم وبالضعف وقلة الحيلة فأعرضوا عن الأرض التي بذل الصحابة والمؤمنون أرواحهم في سبيل الاحتفاظ بها، وتركها الصوفية وشأنها لمن يستولي عليها، وهيئوا بهذا السلوك الانهزامي الفرصة لأعداء الإسلام أن ينالوا ما نالوه من أرض الإسلام([6]).

–معالم الدعوة إلى السلم لدى الصوفية:

إن السلم أو الأمن كما يعرفه البعض هو عدم توقع مكروه في الزمان الآتي، وأصله طمأنينة النفس وزوال الخوف، والسلم أيضا هو الصلح والمسالمة([7])، ففيما تجلّت معالم السّلم في سلوك المتصوفة والدعوة إليه في المجتمعات المحيطة بهم؟

كان أهل التصوف أكثر الناس دعوة لنبذ كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى التصادم والعنف، فنجد الأمير شكيب أرسلان يروي عن أحمد الشريف السنوسي أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له:((لا تحتقرن أحدا لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمتك))(8) ولأن مثل هذا التعصب الديني هو الذي يؤدي إلى نشوء الفتن والمصادمات، ومن ثمة تأتي حالة عدم الأمن وعدم الاستقرار التي تهدد السّلم الاجتماعي رغم أن البعض يرى في هذا الكلام خطأ لأن المسلم يحتقر الكافر لكفره وعندما يسلم يحترمه لإسلامه (9).

وفي نفس السياق نجد ابن منازل يقول لابن حمدون:((أوصني))، فقال: ((إن استطعت ألا تغضب لشيء من الدنيا فافعل))، وقال أيضا: ((إذا رأيت سكرانا فتمايل لئلا تنعى عليه فتبتلى بمثل ذلك)) 10، فكان يدرك جليا بأن الدنيا ومتاعها ومحاسبة الناس وفقا لهوى النفس لا يؤدي إلى الصلاح وإنما يتأتي ذلك بالطرق السلمية والحوار والمجادلة الحسنة، وسئل الحارث بن أسد المحاسبي(بغداد)صاحب كتاب الرعاية لحقوق الله عن حسن الخلق فقال: ((حسن الخلق هو احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام)) (11)، فبهذا نجده يشير إلى أهم الركائز التي قد تساعد على إرساء السلم أوعلى الأقل توقف من حدة التصادم واتساع نطاقه .

أما أبو بكر الدّلائي(12) المتوفى عام 1021هـ/ 1612م والذي كان يعقد في زاويته مجالس للوعظ والإرشاد فيفتتحها دائما بقوله: ((روى الحسن بن الحسن عن جده الحسن إن أحسن الحسن الخُلق الحسن))

([13]) وذلك لما كان يدركه من أثر الأخلاق الحسنة في نفس صاحبها ونفس المحيطين به.

لعبت الطرق الصوفية أو بالأحرى الربط إلى جانب دورها الدفاعي والعسكري دورا علميا أكدت من خلاله سلميتها ولجوئها إلى العقل والمجادلة الحسنة في مواجهة المخالفين والخصوم وخاصة في بلاد المغرب، حين بدأت التيارات الفكرية والمذهبية تتبلور بعد أن كانت قد عصفت بالمشرق، فقد دفعت تلك الأحداث بالمقيمين بتلك الربط أو المحارس إلى التفقه في الدين لا لشيء إلا لمواجهة تلك التيارات الخارجية بدل اللجوء إلى القوة والعنف، خاصة وأن علماء وفقهاء المالكية بدؤوا في تثبيت أقدامهم في منطقة بلاد المغرب.

حاول المتصوفة من خلال تصرفاتهم مع ذويهم وإيمانهم الراسخ بقدرة الله إنصاف المظلوم والانتقام له من الظالم أن يؤسسوا لثقافة السلم داخل مجتمعاتهم، وهذا ما نلحظه في القصائد المنظومة لبعضهم كعبد الكريم الفكون المشهور بمؤلفه (منشور الهداية) الذي ألف قصيدة في التصوف يتذلّل بها إلى الله سماها ((سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل)) مطلعها.

بأسمائك اللهم أبدي توسلاّ فحقق رجاءي يا الهي تفضلا

و يبدو أن الفكون استعمل هذه القصيدة عند الشدة التي لحقته من بعض البغاة، كما أن أحد تلامذته وهو محمد وارث الهاروني قد نسخها منه، واعتمدها ضد عمه الذي بغى عليه واشتكى إلى الفكون منه([14]). كما كان ابن معزة ([15]) أيضا من المشتغلين بالعلم والشعر، وكان

يستعمل شعـــــــره كأداة ووسيلة للدفاع عن شيخه أحمد بن يوسف ضد خصومه(16) دون اللجوء إلى التعنيف أو رد الأذية بمثلها.

أما حاتم الأصمّ فقد جعل شرطا لأتباعه بقوله: ((من دخل مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت، موت أبيض وموت أسود وموت أحمر وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع ـوالموت الأسود احتمال أذى الناس، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض))(17).

إن في هذا الكلام حكمة تحمل في طياتها تنبيها إلى كل ما من شأنه أن يبعد الإنسان عن ربه ودينه ويفسح له المجال أمام شهواته التي تكون دوما سببا في تعاسته من جهة وسببا في تصادم وتقاتل الناس، فالصبر على الجوع وأذى الناس ومخالفة النفس كلها أمور تصب في هذا الإطار.

هذا ولقد كان للمتصوفة المغاربة دور إيجابي في مساندة الأهالي ضد مظالم الحكام الذين كانوا يستجيبون لهم لما كان لهم من مكانة كبيرة في قلوب العامة ورهبة الحكام إياهم اعتقادا منهم في أنهم مستجابو الدعاء، وهذا ما كان له أثره في إقبال المغاربة على المتصوفة وميلهم إلى التصوف(18)، فكانوا بذلك درعا حاميا للأهالي وسندا يضمن لهم نوعا من الأمن والطمأنينة .

امتاز أهل التصوف بكل الشمائل والّسلوكات التي تؤدي إلى التآلف ونبذ الخلاف والشقاق، ففي المغرب نجد محمد بن ناصر الدرعي الأغلاتي الذي ينسبه البعض إلى الصحابي الشهير المقداد، والذي كان متصدقا وصولا للرحم، فما كان أوصل منه(19) تأسيا بالرسول (ص) الذي يقول: ((تصافحوا فان التصافح يذهب غل الصدور وتهادوا فان التهادي يجلب المحبة))(20).

ويبين لنا الشيخ الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي في كتابه -رسالة آداب وسلوك المريد-كيف يكون المريد والمتصوف مع نفسه ومجتمعه بقوله: ((وليبالغ في تنقية قلبه الذي هو موضع نظر ربه من الميل إلى شهوات الدنيا، ومن الحقد والغل والغش لأحد من المسلمين ومن الظن السوء بأحد منهم، وليكن ناصحا لهم رحيما بهم مشفقا عليهم، معتقدا الخير فيهم يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر))([21]).

وفي موقع آخر من الرسالة نجده يقول: ((احذر الدعاء على من آذاك ولا تقل إذا أصابته مصيبة هذا بسبب أذاه لي، وأفضل من الصبر على الأذى العفو عن المؤذي والدعاء له، وذلك من أخلاق الصديقين ....))([22]).

وفي خاتمة الكتاب -التتمة -والتي يورد فيها بعض أوصاف المريد الصادق فيقول((إن ظلم تاب واستغفر، وان ظلم عفا وغفر...ولا يؤذي من أذاه ولا يجفو من جافاه، كالنخلة ترمى بالحجر فترمي بالرطب، وكالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح)) ([23]).

لا شك أن التزام المتصوف أو المسلم بهذه الأخلاق -رغم ما تبدو عليها من مثالية قد تفوق الإنسان العادي لأنها من صفات وشيم الأنبياء والصحابة- يغلق الباب أمام كل أسباب القلق والتوتر والتصادم مع الغير التي قد تفسد الأمن والسّلام بين المسلمين.

إن التصوف لم يحل بين أهل المغرب ومذاهبهم إلا الشّاذة منها، فالتيار السّني والتيار الصوفي في بلاد المغرب كانا متداخلين تداخلا شديدا، إلى الدرجة التي يجمع فيها كثير من العباد المغاربة بين التصوف

والسنة في آن واحد، وكان كثير من أعلام التصوف المغربي هم في نفس الوقت من أعلام المالكية أو السنية المغربية على وجه العموم (24).

كان للتصوف دور كبير في الضبط الاجتماعي في كثير من الأقاليم، وخاصة تلك التي يتتشر فيها عادة الأخذ بالثار، فكلمة طيبة بسيطة من رجل صوفي ملهم لها فعل السحر في النفوس، تقضي على دواعي الشر والفتنة، فإذا بالمتنازعين جميعا إخوة متحابون متآلفون يسعون في سبيل الخير والوئام والصالح العام، وبذلك كان للشيخ تأثير ايجابي ودور فعال في فض النزاعات وإقامة السلام وتحقيق الأمن والقضاء على التشاحن والتباغض وحل المشاكل على اختلافها، سواء كانت دينية أو دنيوية، وكل هذه الأمور تكون مقومات الأثر الفعال للتصوف والطريقة الصوفية على المجتمع في دفع عجلة الحياة إلى الحركة والتسامي والتقدم، لذلك قد يكون ضرورة لا بديل لها في مكافحة الجريمة ومقاومة الانحراف وإيقاظ الضمير وتحقيق الضبط الاجتماعي وتدعيم القيم وترسيخها، إذ الطريقة تتغلغل في حياة أعضائها الدينية والاجتماعية والعلمية والتربوية والفكرية مما يجعلها ذات أثر فعال على كافة أنماط سلوكهم مع مختلف الأفراد الذين يتعاملون معهم (25)، ويتضح من ذلك أن تغيرا واضحا وملحوظا في المتصوف يبدو أساسا في تغيره معنويا وهذا ينعكس في سلوكه الذاتي الناتج عن بعض الإشعاعات الفردية المترتبة على بعض التغيرات التي تصيبه في بداية الطريق كالهدوء النسبي عوضا عن العصبية والمودة والرحمة في المعاملة بدلا من الشدة وغيرها من الصفات الذاتية (26).

-مظاهر السلوك السلمي لدى الحركات الصوفية :

إذا عدنا إلى العهود الأولى للإسلام نجد الميول إلى السلم والابتعاد عن كل صدام قد ظهرت مع الفتن الأولى التي عرفتها الأمة الإسلامية،

والتي بدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان بعد محاصرته في بيته وعدم تمكن كبار الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه – من التصدي لهذه الفتنة، ثم معارك علي كرم الله وجهه (أزهد الناس في الدنيا) (27) مع مخالفيه المجتمعين تحت لواء عائشة بنت أبي بكر، ثم كان ما حدث بين علي ومعاوية بعد أن عزله عن ولاية الشام، فكانت موقعة صفين سنة 37هـ، إذ اقتتلا مائة وعشرة أيام، قتل فيها من الفريقين عدد كبير، فانتهى الاقتتال بتحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص وبين علي والخوارج في النهروان(28) سنة 38هـ، بعد أن نقموا على الإمام علي رضاه بالتحكيم، ثم الحروب بين معاوية وأولاد علي رضي الله عنه(الحسن والحسين)، كل هذه الحوادث أثرت في نفوس المتدينين الحقيقيين من المسلمين بحيث تركت في نفوسهم أثرا عميقا يحمل نوعا من التشاؤم ودعتهم إلى ترك المتحاربين وعدم مشاركتهم في حروبهم، ففروا بدينهم حفاظا عليه(29)، وعلى رأسهم الحسن بن علي الذي أشار عليه أهل العراق بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان، وعندما تقارب الجيشان في موضع (مسكن) بناحية الأنبار لم يستشعر الحسن الثقة بمن معه وهاله اقتتال المسلمين، فكتب إلى معاوية يشترط شروطا للصلح، ورضي معاوية فخلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس سنة41هـ، فسمي هذا العام بعام الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيه.

وبهذا تكون قد ظهرت في هذه الحوادث التي ألمت بالمسلمين أولى تجليات التصوف الإسلامي الحقيقي الداعي إلى نبذ العنف وإعمال العقل والحلول السلمية بدل القوة، رغم التواجد في موقع القوة، وذلك امتثالا للشرائع الدينية الإسلامية لأن الإسلام أمر بالتدخل في مثل هذه الحالات

بإصلاح ذات البين حفظا لأرواح ودماء المسلمين مصداقا لقوله تعالى:((وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله......)) ([30]).

وبعد أن تجدر التصوف وأصبحت له طرقه ومريدوه ازدادت تجليات السلوك السلمي، فقد لعبت الزوايا والطرق الصوفية خاصة في المناطق الريفية أين يغيب القضاء الرسمي، دورا هاما في الحفاظ على الأمن والسلم،لأن السلطة في الزاوية كانت بيد مجلسها الذي كانت مهمته هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات، أو بيد شيخ الزاوية الذي يطلق عليه اسم –المقدّم– وهو كما يقول أرسلان القيّم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام .

كان فض المنازعات في الزاوية يتم باتخاذ رئيس الزاوية مجلسا من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل الوجوه، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضا بذلك، ومنها ما يفضّ بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول، وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية والقبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له، ويضرب لذلك موعدا يحدد زمانه ومكانه وهناك يحسم بدون عناء وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ يرفع إلى الزاوية الرئيسية أو الأم في المنطقة حيث يصدر القرار النهائي ([31]) ومن ذلك ما قامت به –الزاوية السنوسية– بليبيا.

مثل الخصام الذي وقع بين أهالي هون وسوكنه، واستطاعت زاوية –هون– السنوسية أن تزيله، فاستطاعت بذلك أن تجعل من القبائل في الصحراء الكبرى مجتمعا متماسكا كالجسد الواحد، وهذا مطلب من مطالب الشّرع الإسلامي الذي يدعو إلى التآخي ونسيان الأحقاد، فالزاوية السنوسية اهتمت بالقضاء على المنازعات والخصومات بين عشائر البدو في ليبيا وخاصة في برقة، واهتمت بعقد الصلح وتوطيد أركان الإسلام والإخوة بين شعوب الصحراء المتطاحنة خاصة وأن بعض الحروب كانت سببا في قتل عدد كبير من الناس وإيجاد الفتن، لذلك فالسنوسية تمثل وظيفة تحقيق الصلح والتراضي بين الشعوب المتنازعة كعامل من عوامل الضبط الاجتماعي([32]).

لا خفاء أن تامين السبل وتمهيد الطرق يعد من أفضل الأعمال، كما أن إخافة السبل يعد من أقبح المعاصي، وهذا مما لا يحتاج إلى تمهيد الدلائل عليه، ولهذا رأى أبو الحسن المريني أن يؤمن الطرق وذلك بتعمير طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب(وهي خيام) يأمر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثوابا على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون إليها هم وبهائمهم، ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم فان ضاع بينهم شيء تضمنوه فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله ،وقد جرى هذا النمط واستمر والحمد لله في بلاد المغرب ([33]).

ولما قامت الفتنة في المغرب بين أبناء المنصور الذهبي واسود أفق المغرب وانقطعت السبل وتغلب الأقوياء على الضعفاء وكثر السلب والنهب لانعدام السلطة التي تسهر على حفظ النظام، كان الشيخ أبو بكر الدلائي بما له من المنزلة الرفيعة عند القبائل البربرية يكف أيدي الجناة عن الجرائم وينصف المظلوم من الظالم ويدفع بالتي هي أحسن، فكان بذلك ملاذا آمنا لكل من خشي نوائب الدهر وسطو الأقوياء والظَّلمة([34]).

كما عملت بعض الزوايا والطرق الصوفية على نشر السلام والأمن بين أهل البلد وذلك من خلال الرّباطات الداخلية التي وفرت الأمن والاستقرار في المواضع المخوفة فأمنت الطرق ووفرت الطمأنينة للمسافرين والتجار في مواضع كانت فيما مضى مأوى لأهل الفساد وقطاع الطرق فتواجدت على طول الساحل المغاربي جملة من الرّباطات نذكر منها في افريقية (تونس) رباط المونستير([35]) ورباط سوسة الذي أقامه زيادة الله الأغلبي 206ه/ 822 م وعموما فقد كانت هذه الرباطات تمتد إلى أقصى المغرب الأقصى وكانت تمثل في عمومها قوة صدام تذود عن المسلمين وتوفر لهم الأمن والسلام ويأوي إليها أهل تلك المناطق إذا غزاهم الروم فهي مفزع لهم وغوث للمسلمين([36])، أما بالمغرب الأوسط (الجزائر) فتواجدت مجموعة من المحارس منها مرسى بونة-عنابة-المنيع الذي كانت تخرج منه السفن لتغزو بلاد الروم وجزر سردانية وكورسيكا وما والاها وشرشال التي تواجدت بها جملة من الربط التي يجتمع إليها خلق كثير في كل عام ورباط ساحل تلمسان مثل تانكرامت وحصن مرنية البير وحصن الوردانية وحصن هنين وغيرها([37])،زيادة على هذا فقد وفر سكان الربط الأمن والاستقرار في الديار الصحراوية النائية، فأصبح بإمكان القوافل عبور تلك الطريق بأمن وسلام دون أن

يتعرض لها أحد بسوء، الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة (38)،لأن السلم والأمن والاستقرار أساس وشرط لكل انتعاش اقتصادي.

لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في ترسيخ قيم السلم والمصالحة وخاصة في بلاد المغرب بدءا من يوسف بن تاشفين الذي دفعت أعماله وصفاته المؤرخ الألماني أشباخ إلى الاعتراف له بما قام به من توحيد الصفوف وزرع السلام بين القبائل والأمم الأفريقية الممزقة: ((انه أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذي يلوّح أن القدر اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فهو الذي جعل من افريقية الممزقة شر تمزق مملكة عظيمة موحدة وهو الذي بث روحا قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب))

قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بينها، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة لأن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا.

كانت زاوية الجوف (واحة الكفرة) التي كان ابن السنوسي قد عهد ببنائها إلى بعض المشايخ عقب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زاوية العربية يوم ذاك مأوى للدعارة واللصوص ومعقلا حصينا لقطاع الطريق، وكان يتناوب على غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها، وهي قبائل الجهمة من مصر وقبائل التبو من شمال السودان وقبائل زوية من برقة، وبذلك فقد كونت خطرا على السابلة وقوافل التجارة إلى أن

أنشئت بها الزاوية السنوسية، فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي.

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن دار السلامة للإسلام مهتجر
تأوي الوفود لها من كل ناحية مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

مثلت الزوايا نبراسا للتائهين وموطن سلام وأمن لمن تقطعت بهم السبل نهارا وليلا، لأن الزاوية السنوسية كانت تتكون من بيت خاص لإسكان الشيخ وبيوت خاصة بالضيوف أين يتم إطعامهم إلى جانب الفقراء والمساكين([39]) فالزاوية السنوسية على سبيل المثال لا الحصر كانت مسجدا ومضيفة وخلوات لسكنى الأتباع ومقرا لإيواء اللاجئين، وهي بمثابة محط رحال للقوافل([40])، وفي هذا المجال نجد الربط قد أدت خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق [41]،فكان رباط السنغال الذي أقامه عبد الله بن ياسين في الحوض الأدنى لنهر السنغال بالقرب من مملكة غانا الوثنية وغير بعيد عن ديار الملثمين الذين قد يلجأ إليهم في حالة الخطر، منارة شع نورها في ظلمة الصحراء على حد تعبير المالكي([42]).

وكان إذا التجأ شخص أو مجموعة من الأشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هاته حمايته والسّعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء إليها بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة .

أصبحت الزوايا بعد تأسيسها تسير من طرف شيوخ الصوفية – المرابطين– وقد حظي هؤلاء المرابطون في أوساط الجماهير الشعبية

بالاحترام والتقدير نظرا لما كانوا يقومون به من نشر للعلم ومحاربة الجهل وإصلاح بين الناس وإطعام للفقراء والمساكين وعابري السبيل ونشر آداب الإسلام وأخلاقه من رحمة وأخوة وتسامح وتعاون وتضامن، فنجد الطريقة العقادية الشاذلية بمصر رغم دورها الذي كان ضئيلا تغرس في نفوس أتباعها المودة والرحمة من خلال القول المأثور الذي جعلت منه شعارا لها ((تحابوا كالأقارب وتعاملوا كالأجانب))(43).

امتاز أهل التصوف بكل الشمائل والسلوكات التي تؤدي إلى التآلف ونبذ الخلاف والشقاق، ففي المغرب مثلا نجد محمد بن ناصر الدرعي الأغلاتي(44) وكذا أحمد بن إبراهيم الدرعي الذي كان في العطاء والكرم بحرا، ويسارع نحو كل ما يؤلف بين القلوب ويبتعد عن كل ما يقسي القلوب، حتى أن حساء العدس لم يكن يفارقه لما روي في الحديث أن نبيا من الأنبياء اشتكى إلى ربه قسوة قلوب أمته فأمرهم بأكل العدس فأكلوه ورقت قلوبهم، وكان حسن الخلق ودودا مسالما ما جالسه أحد إلا ظن الجليس أنه المستبد بصحبته ومحبته دون جميع الناس(45).

إذن فقد امتاز أتباع الطرق الصوفية ولا يزالون بالتسامح والمسالمة وخاصة أتباع الطريقة القادرية متأثرين في ذلك بأقوال شيخ طريقتهم عبد القادر الجيلاني المتوفي عام 561ه/ 1166م وتعاليمه ومواعظه مثل قوله لهم "اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واتحدوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا واجتمعوا على الذكر ولا تتفرقوا وتطهروا من الذنوب ولا تتناطحوا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا "(46) وهنا أيضا نلاحظ دعوة صريحة إلى السلم والمصالحة ونبذ الصدام العنف.

كثيرا ما تقلد رجال الصوفية مناصب القضاء التي تعتبر من أكثر المناصب حساسية، لما لها من أثر إما في استتباب الأمن أو انتشار الفوضى

وظاهرة الثأر والانتقام للنفس، ولهذا فقد كانت مهمة أولئك الصوفية القضاة صعبة ودقيقة جدا، سواء فيما حكموا به بين الناس بطريقة رسمية داخل المؤسسات القضاء،أو بطريقة غير رسمية تتم خارج المحاكم بطريقة ودية وحبية يرتضي فيها الطرفان بحكم ذلك الرجل، ومن بين من ولي هذه المهمة الفقيه الصالح القاضي سيدي عبد المؤمن بن محمد الذي كان فقيها صالحا ناصحا ورعا، ولي القضاء بالزاوية البكرية وكان أعدل قضاة زمنه، ومن أولئك أيضا سيدي محمد الرقاد بن أحمد الفيرم بن سيدي عمر الشيخ الكنتي الولي الصالح العابد المتنسك الذي كان يأتيه القوم لحل معضلاتهم وما كانوا فيه يختصمون، ففي ذات مرة أتاه قوم يختصمون في معضلة فوجدوه نائما فقضى بينهم وهو نائم، ولهذا سمي بالرقاد([47])، وكذا علي بن محمد المربي الشريف المتوفى سنة1053 الذي ولي قضاء فاس لما كان معروفا عنه من علم ونباهة ([48]) .

إذا كانت الطرق الصوفية قد استعملت القوة في مواجهة الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية والعربية باعتبار ذلك أمرا مشروعا، فإنها جنحت إلى السلم في نشر الإسلام، مثل الطريقة القادرية والطريقة التيجانية التي استعملت وسيلة التجارة في ذلك، ووصل مبعوثوها ورسلها إلى بلاد السودان والسنغال والغابون والكونغو وبعض أجزاء آسيا مبدين ومقدمين الإسلام على أحسن وجه كما فعل المسلمون الأوائل حينما قاموا بنشر الإسلام في أقاصي الأرض عن طريق الأخلاق الفاضلة والأمانة والصدق في المعاملات التجارية والمالية، فنجد ابن السنوسي يتبع أسلوبا دعويا مستمدا من الكتاب والسنة، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب

سلمي رفيع،فاشتراهم واعتقهم وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم([49]).

إذن من هنا نخلص إلى القول بأن للتصوف وجهان: تصوف عملي ساهم في تكريس القيم الإسلامية الحقّة داخل المجتمعات الإسلامية بداية وانطلاقا من المريدين والأتباع ، فانتشرت معها قيم السلم والمصالحة ، وتصوف بدعي حاد عن جادة الدين وانغمس في الشطحات والّسلوكات غير السوية والتي يرفضها الكثير ويرفضون معها التصزف جملة وتفصيلا وفي مثل ذلك التصوف قال أبو بكر الجزائري((إن كان التصوف من الإسلام فالإسلام يكفينا، وإن كان غير الإسلام فهو لا يعنينا)).

الإحالات:

[1]. انظر، محمد العبده وطارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها،ط2،دار الأرقم ،الكويت، 1417ه/ 1997م، ص5.

[2]. أنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ط1، ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا،ألمانيا -بغداد2006 .

انظر عبد الحليم محمود،المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي،دار الكتب الحديثة،القاهرة،ص242. [3].

[4]. عمر عطا الله أبو أصبع ،موقف الإسلام من التصوف،رسالة ماجستير ،معهد الدراسات الإسلامية ،وزارة التعليم العالي، 1398 ه-1978م،ص15.

[5].انظر محمد العبده وطارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها ،ط2، دار الأرقم،الكويت،1997 ،ص10.

[6].عمر عطا الله أبو أصبع،المرجع السابق،ص46.

[7]. انظر الرازي(ابن أبي بكر) مختار الصحاح،طبعة خاصة،دائرة المعاجم ،مكتبة لبنان،1986،ص132.

[8]. شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي،الجزء 2- ص164.

[9]. محمد العبده –طارق عبد الحليم، المرجع السابق، ص61 .

[10]. أبو عبد الرحمن السلمي،الطبقات الصوفية ،ط2،تحقيق أحمد الشرباصي، مؤسسة دار الشعب،1998،ص40.

[11]. نفسه ، ص22

[12]. نسبة إلى الزاوية الدلائية، يشهد له بأنه كان جميل الهدي كثير السلام خافض الطرف قليل الكلام نجد حسن العشرة شديد المحافظة على العهد كريم الأخلاق داعيا إلى المحبة والتسامح والتصافي،انظر محمد حجي، الزاوية الدلائية ودرها الديني والعلمي والسياسي،المطبعة الوطنية بالرباط، 1964، ص45.

[13]. محمد حجي ،نفس المرجع ،ص45.

ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1،ج2،-1500-1830-دار الغرب الإسلامي ،1998ص140.[14].

[15]. القلعي نسبة إلى قلعة قلعة هوارة القريبة من تلمسان المولود سنة 923 هـ هو والد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ .

أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق،ج2،ص114.[16].

[17]. أبو عبد الرحمن السلمي، المرجع السابق، ص30.

[18]. محمد بركات البيلي، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة،1993.ص103 .

[19]. محمد بن الطيب القادري، موسوعة أعلام المغرب، القسم الثاني، تحقيق محمد حجي ،أحمد التوفيق، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996م، ص1412 وما يليها.

[20]. محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بوعياد،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1981م، ص451.

[21]. ابن علوي(الحبيب عبد الله)،آداب وسلوك المريد ،سلسلة كتب الإمام الحداد،دت، ص7.

[22]. نفسه، ص107.

[23].نفسه، ص115.

[24]. محمد بركات البيلي،المرجع السابق، ص104.

[25]. منال عبد المنعم جاد الله ، التصوف في مصر والمغرب ،منشاة المعارف بالإسكندرية،ص271.

[26]. نفسه، ص267 .

[27]. حسب ما يؤثر عن عمر بن عبد العزيز –فكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير الذي تطحنه امرأته بيديها وأبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثارا للخصاص التي يسكنها الفقراء وكثيرا ما كان يقدم طعامه الذي لا يملك سواه لمسكين أو يتيم.

[28]. بكسر النون ،وهي ثلاثة نهروانات :الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، وبها كانت وقعة لأمير المومنين علي مع الخوارج. انظر،ياقوت الحموي، معجم البلدان،د ار صادر بيروت لبنان،1977 م، ج5، ص124–125.

[29]. عمر عطا الله، المرجع السابق،ص112–113.

[30]. سورة الحجرات،الآية 90.

[31]. علي محمد الصلابي، الحركة السنوسية في ليبيا–الإمام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس التعليمي والحركي والتربوي والدعوي والسياسي ،ج1،ص132–133.

[32].انظر منال عبد المنعم جاد الله ، المرجع السابق، ص273.

[33]. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص429.

[34]. محمد حجي، الزاوية الدلائية– ودورها الديني والسياسي–،المطبعة الوطنية بالرباط، المغرب، 1384ه/ 1964م، ص45.

[35]. أقدم محارسها وأبعدها صيتا وأعلاها شانا والذي توجد به عدة محارس او قصور منها القصر الكبير الذي بناه هرثمة بن اعين الوالي العباسي سنة179/795م،وفي هذا الشأن يقول أبو عبيد الله البكري((وقدم هرثمة بن أعين القيروان مستهل ربيع الأخر سنة سبع وسبعين ومائة ،فامن الناس وسكنهم واحسن اليهم وهو الذي بنى القصر الكبير بالمنستير وذلك سنة ثمانين ومائة على يدي زكرياء بن قادم))انظر الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب،ط1، تقديم وتحقيق ،محمد زينهم ومحمد عزب،دار الفرجاني للنشر والتوزيع،1994، ص124.

[36] البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر1857، ص57.. .

[37]. نفسه ،ص79–80–82–83.

[38]. سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص28.

[39]. صلاح مؤيد العقبي،الطرق الصوفبة والزوايا بالجزائر –تاريخها ونشاطها–ط2، دار البصائر،الجزائر 2009، ص277.

[40].صلاح مؤيد العقبي،المرجع السابق،ص271.

[41]. سعدون عباس نصر الله، المرجع السابق،ص26

[42]. المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم ،ج1،تحقيق حسين مؤنس،ا لقاهرة 1951، ص172.

[43]. منال عبد المنعم جاد الله ،نفس المرجع، ص273.

[44]. ينسبه البعض إلى الصحابي الشهير المقداذ "علما بان المقداد لا عقب له. انظر محمد بن الطيب القادري موسوعة أعلام المغرب ،القسم الثاني تحقيق محمد حجي ،أحمد التوفيق،ص1412.

[45]. أبو عبد الله محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مخطوط،رقم2500– بالمكتبة العامة لمحافظة الرباط ورقة رقم183 وما يليها.

[46]. صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص98.

[47]. العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام،ط2،مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط 1993،ج2، ص242.

[48]. محمد بن الطيب القادري ، المرجع السابق،ص1418.

[49]. محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص256.